بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على خير خلق الله ، محمد ابن عبدالله ، على آله وأصحابه ، ومن والاه.

وبعــد ،،،

فلما كانت اللجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية قد وضعت خطة لتهيئة الأجواء لاستكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، ولما كان من أهم وسائل التهيئة توعية الناس بالشريعة الإسلامية، ومبادئها ومقاصدها، وبيان صلاحها لكل زمان ومكان، وكيف لا ، وق شرعها وأنزلها للناس كافة رب العالمين سبحانه وتعالى، الذي هو أعلم بما ينفعهم ، وما يضرهم.

(ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) (الملك : 14)

لما كان الأمر كذلك ، فقد سلكت اللجنة في توعية الناس عدة مسالك. كان منها نشر الكتب والأبحاث والدراسات التي تؤصل هذه المفاهيم.

وقد أوعزت إلى إدارة البحوث والمعلومات بالقيام بهذه المهمة المباركة ، فكان أن أصدرت الإدارة تحت عنوان : سلسلة تهيئة الأجواء " إصدارها الأول.

كتاب " عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية " للدكتور يوسف القرضاوي حفظه الله تعالى.

واليوم تقوم الإدارة بنشر وتوزيع بعض الرسائل المختارة من كتاب " على طريق العودة إلى الإسلام" للدكتور محمد

سعيد رمضان البوطي. بعد استئذاته في ذلك، تحت سلسلة تهيئة الأجواء.
والدكتور البوطي غني عن التعريف . فقد عرفه القاصي والداني عالماً ربانياً ، وداعية متميزاً ، وكاتباً ، وأديباً ، امتازت كتابته بالدقة والرقة ، والبيان والحنان، وأفكاره بالعمق، وعواطفه بالصدق.
فعم-والحمد لله – نفعه، وانتشر ذكره وفضله ، فنسأل الله له دوام البذل والعطاء، والأجر الثواب.
الأولى : العناية بالعبادات أساس لابد منه لتثبت المجتمع الإسلامي.
الثانية : الشبهات التي تثار حول تطبيق الشريعة الإسلامية في العصر الحديث.
الثالثة : العقوبات الإسلامية وعقدة التناقض بينها وبين ما يسمى بطبيعة العصر الحديث.
الرابعة : حقوق المرأة وعقدة التناقض بينها وبين الشريعة الإسلامية.
والله نسأل أن يجعل الخير لهذه الأمة ، ويكتب لها الفرج مما تعانيه ، والظفر بما تصبو إلهي ، كما نسأله أن يرحم شهداءنا ويفك قيد أسرانا وأسرى المسلمين، وهو حسبنا ونعم الوكيل.
وصلى الله علي سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.
البوطي في سطور :

- الاسم : محمد سعيد رمضان البوطي من مواليد عين ديوار شمالي سورية عام 1929م.

- أنهى دراسته الثانوية في دمشق ، ثم التحق بكلية الشريعة في جامعة الأزهر وحصل على إجازتها عام 1955م.
- حصل عام 1956م على دبلوم في التدريس من كلية اللغة العربية في جامعة الأزهر.
- أوفد عام 1961م من جامعة دمشق إلى جامعة الأزهر للحصول على الأستاذية في الفقه وأصوله.
- حصل عام 1965م على الدكتوراه في الفقه وأصوله من الجامعة المذكورة.
- عين مدرساً في كلية الشريعة عام 1965م ثم وكيلاً فعميداً لها. وهو الآن يشغل وظيفة رئيس قسم العقائد والأديان في جامعة دمشق.
- له مؤلفات كثيرة تبلغ قرابة أربعين مؤلفاً ، في الفقه وأصوله والفلسفة والتربية الاجتماع والأدب وعلوم القرآن ، وقد ترجم الكثير منها إلى اللغة الانكليزية والفرنسية والتركية والماليزية.
- اشترك في عشرات المؤتمرات العالمية في البلاد العربية والإسلامية وغيرها.
- عضو في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في الأردن.
- من أبرز مؤلفاته وأشهرها :

1- ضوابط المعرفة في الشريعة الإسلامية.

2- فقه السيرة النبوية مع موجز من تاريخ الخلافة الراشدة.

3- كبرى اليقينيات الكونية : وجود الخالق ووظيفة المخلوق.
4- السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي.
5- نقض أوهام المادية الجدلية.
6- من الفكر والقلب.
7- الجهاد في الإسلام كيف نفهمه وكيف نمارسه.
8- حوار حول مشكلات حضارية.
9- محاضرات في الفقه المقارن.
10- تحديد النسل وقاية وعلاجاً.
11- سلسلة كتيبات عشرة بعنوان " أبحاث في القمة".
12- هذه مشكلاتهم.
13- وهذه مشكلاتنا.

بالإضافة إلى كتب كثيرة أخرى ، وبحوث متنوعة منشورة في مجلات متنوعة.

شكر وثناء

إن إدارة البحوث والمعلومات في اللجنة الاستشارية العليا لتشكر الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي على إذنه بطباعة الرسائل المذكورة من كتابه " على طريق العودة إلى الإسلام ".

الرسالة الأولى

تمهيد :-

إن الله عز وجل خلق العباد بحكمة منه واختيار.

قال تعالى : " وربك يخلق ما يشاء ويختار " (القصص : 68)

وشاء سبحانه وتعالى أن يمتحن عباده بما يريد، ويبتليهم بما يحب ، قال عز وجل :

(خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) (الملك : 2)

وقال (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون) (الأنبياء : 35)

وجعل سبحانه وتعالى مادة هذا الاختبار تلك التكاليف المتنوعة التي ألزم عباده بها من فعل مأمور، وترك منهي ، وصبر على مصيبة ، ورضى بقضاء وقدر.

والقيام بحق هذه التكاليف هو العبادة بمفهومها العام التي هي ماة الاختبار بصورة المتنوعة.

قال تعالى : " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " . (الذاريات : 56)

لكن غلب في عرف الناس استعمال العبادات ببعض صور التكاليف ، وهي أركان الإسلام، من صلاة ، وزكاة ، وصيام ، وحج ، وذكر، ودعاء، وقراءة للقرآن الكريم ونحو ذلك.

وهذه العبادات بمفهومها الخاص هي المدخل لكل أنواع الطاعات، وهي الأساس والركيزة التي ينطلق المسلم من شواطئها لينهض بعبء كل ما كلفه الله تعالى به، وإذا

أهملت هذه العبادات فهيهات أن يقوى العبد على القيام بما وراءها من أنواع التكاليف.
والدكتور البوطي قد جلى هذا الموضوع كل التجيلة ، وأعطاه ما يستحقه من التدليل والتعليل.
وإنك لتجد كل هذا عند قراءتك لهذه الرسالة المباركة التي نسأل الله تعالى أن ينفعك بها- أيها القارئ الكريم-وأن يجعلها عوناً لك على محبة الله ، والرغبة في طاعته والتزام شرعه، والله من وراء القصد.
إدارة البحوث والمعلومات
العناية بالعبادات
أساس لا بد منه لتثبيت المجتمع الإسلامي
لا ينجح المسلمون في تثبيت التشريعات الإسلامية العامة واستبدالها بالقوانين الوضعية، ما لم يمهد لذلك بتثبيت أركان العبادات وآدابها، والاهتمام بتزكية الضمائر والنفوس.
فإن هم لم يفعلوا ذلك، جاءت التشريعات القضائية العامة، ثقلاً تعافه أكثر النفوس.
وربما تجلى من اضطراب الناس حيالها ما قد يخيل لبعض منهم بأن تجربة تطبيق الشريعة الإسلامية أثبتت أنها غير ناجحة في نطاق التحقيق.
محور هذا البحث : العبادات في الإسلام.
فما المقصود من كلمة " العبادات " ؟
العبادة والعبودية والعبودة ، كلمها ، في أصلها اللغوي ، تعبير عن بذل أقصى الطاعة، وعليه قول الله تعالى ،

تعليماً لما يجب أن نخاطبه به في الصلاة : " إياك نعبد " (الفاتحة : 5) أي نخصك بالطاعة التامة المطلقة.
إلا أن فرقاً اصطلاحياً قد ظهر بعد ذلك بين كلمة العبودية والعبادة.
أما العبودية فتطلق ويراد بها الوصف الثابت المستكن في الفطرة الإنسانية، والمعبر عن منتهى الخضوع والضعف تحت سلطان ذي قوة قاهرة غير محدودة، بقطع النظر عن ظهور آثار ذلك أو عدم ظهورها على صعيد الاعتراف والسلوك.
وأما العبادة ، فيراد بها التعبير عن ذلك الوصف المستكن في الفطرة ، بالطاعة السلوكية ، في أوامر لا يراد من تنفيذها إلا التلبية والطاعة ذاتها، بدون أي نظر إلى مصلحة أو فائدة قد تستتبعها.
فالعبودية إذا طابع شامل للفطرة الإنسانية أياً كان صاحبها، مؤمناً كان أو كافراً ، براً كان أو فاجراً . إذ هي الحقيقة التي تستقيم عليها فطرة اِلإنسان ما دام إنساناً.
وهي الحقيقة التي نوه عنها البيان الإلهي بقوله عز وجل : (وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون).
وبقوله عز وجل " ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والأصال) (الرعد : 15).
والحديث عن مستقر هذه العبودية في نفوس الطغاة والجاحدين ، والعوامل التي تظهرها آناً وتخفيها آناً آخر، حديث طويل ذو شجون لا نستطيع أن نعرج عليه في غضون بحثنا هذا.

أما العبادة . فهي على الرغم من كونها ثمرة لطابع العبودية كما قلنا، إلا أنها من أخص سمات المؤمنين بالله عز وجل ، أي الذين وضعوا عبوديتهم لله تعالى موضع التنفيذ وعبروا عنها ببيعة صادقة مع الله عز وجل على السمع والطاعة في العسر واليسر والشدة والرخاء. وإنما سبيل ذلك اتباع أوامره عز وجل والانتهاء عن نواهيه ، بدافع أساسي هو الرغبة في طاعته واتباع أوامره.

وليس الدين الحق في جوهره وخلاصة أمره ، إلا دعوة للناس أن يكونوا عبيداً لله عز وجل بالسلوك والاختيار، كما قد خلقوا عبيداً له بالقهر والاضطرار.

وواضح أن حديثنا في هذا البحث ، إنما هو عن أثر العبادة في حاية الإنسان. لا عن أثر العبودية الكامنة في فطرته والتي قد لا يبدو لها من أثر طيلة حياته.

***

فإذا حددنا المقصود بالعبادة ، فلنحاول أن نتبين آثارها في حياة الإنسان الاجتماعية، وبتعبير أدق : في الأبعاد الأساسية لأي مجتمع يصلح أن يسمى إسلامياً.

ولا ريب أن أي هيئة تركيبية لحياة إنسانية صالحة، لا بد أن يتكون حجمها من ثلاثة أبعاد : الوضع الاجتماعي ، والنظام الاقتصادي ، والإطار السياسي، ومن شأن هذه الأبعاد الثلاثة أن تعلو أو تهبط ، وتستقيم أو تنحرف حسب علاقتها سلباً أو إيجابياً ، بما يسمونه اليوم " الطاقة الروحية.

معنى الطاقة الروحية وأثر العبادات في تصعيدها :

وإذا كان المقصود بحياة الإنسان السياسية والاجتماعية والاقتصادية واضحاً متميزاً لا سيما في عرف الثقافة

الجديدة وأهلها، فإن المقصود بالجانب الروحي منها لا يزال شيئاً يكتنفه الغموض، بل قد يطوله الجحود والإنكار.

فرغم أن دلائل الروح ووجودها قد سطعت في ساحات كثير من العلوم والاكتشافات الحديثة ، تظل طائفة كبيرة من الناس تجحد الروح وتنكرها، وتعزو جميع ثمارها وآثارها إلى علم وظائف الأعضاء في جسم الإنسان، لتمكن لنفسها سبيل القول بأن الحياة ليست إلا ذرة تسبح في تلك المادة.

هذه الطائفة من الناس قد تستعمل كلمة الروح أو الروحانية أو الحياة الروحية في بعض ما تتحدث عنه من معان وأفكار. ولكنها إنما تعبر بتلك الكلمة أو نحوها عما هو شارد – بنظرها – وراء سور العلم ما لا ينبغي أن يقام له وزن ، أو عما يؤمن به الآخرون فقط، فهي تستعملها على سبيل المجاملة والمشاكلة لهم عندما تقتضيهم الظروف ذلك.

وأغلب الظن أن الذين لا يزالون ينكرون الروح ، إنما يفعلون ذلك ، لأنهم يعجزون عن إدراك كنهها والإحاطة بماهيتها ، فيصرفونها إلى شئ يسعهم فهمه ، ويريحون أنفسهم بفرض أنها ليست إلا نتيجة مادية معقدة لعمل المخ والأعصاب، وإذا صدق ظننا هذا فلسوف يطول إنكارهم للروح وحقيقتها ، لأنهم لن يدركوا كنهها وحقيقتها يوماً ما ، ولسوف تظل معجزة التحدي الرباني تفرض نفسها من علو شامخ على القرون والأجيال من خلال قوله عز وجل.

(ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) (الإسراء : 85).
وكلمة هذا شأنها ، ما ينبغي أن توضع اصطلاحاً في بحث كهذا . يراد منه أن يصل إلى سمع شتى الفئات والمشارب المتخالفة من الناس، ليقتنعوا به وتخبت له عقولهم وقلوبهم. فلنجار هذه الائفة من الناس. وهم أولئك الذين يحبسون عقولهم ، وألبابهم ضمن جدران المادة من هذا العالم الإنساني الفسيح العجيب ، ولنتجاوز التعبير بكلةم " الروح" أو " الحياة الروحية " إلى الوقوف عند ثمارها وثرواتها التي تطفح بها حياة الإنسان، والتي لا ينكرها أي عاقل.
لئن أنكر حقيقة الروح من أنكرها من الناس، فإن أحداً منهم أو من غيرهم لا يسعه أن ينكر أفراح النفس وأحزانها- حنينها إلى الماضي المنصرم وتشوقها إلى الجديد المقبل – أنسها بالأليف دون أن تعلم كيف صار أليفاً ، واستيحاشها من البغيض دون أن تعلم لماذا كان بغيضاً. ينتشر السرور في ذرات المشارع دون أن تعلم من أين جاء هذا السرور وكيف انتشر، ثم تنطوي هذه المشاعر على انقباض خانق وكرب كأنه قاتل دون أن تعلم له موجباً أو أن يكون لك إليه أي رغبة أو اختيار.
عالم بل بحر من المشاعر العجيبة يتلاطم في كيان هذا الحيوان الذي بسببه صار اسمه إنساناً ، تقف كل طاقات اللغة والتعبير عاجزة عند شاطئه ، فإن اشتدت لديه بواعث التعبر أو التصوير استعان بالآهة أو الأنة أو النغمة ، لا يجد بديلاً عنها ، فيكون له من ذلك ما نسميه طرباً ، إذا رأى

سبيلاً لتصوير شئ من مشاعره التي عجزت الإشارات واللغات عن إبانتها والتعبير عنها.
هذه المشاعر مكان يقين واعتراف من الجميع، أياً كان مبعثها ومهما كان اسم مصدرها.
فعن هذه المشاعر نتحدث إن عبرنا بالروح أو الحياة الروحية أو نحو من هذه الكلمة.
هذه المشاعر معرضة – بلا ريب – للصعود والهبوط خلال سلم التلاقي في كيان الإنسان وحياته.
قد تهبط إلى مستوى من الدون والحطة يجعل صاحبه ينزل إلى درك أشرس الحيوانات المتوحشة العجماء. وقد تعلو إلى مستوى من الصفاء. يجعل من صاحبه قبس سعادة وإسعاد لكل من حوله من الناس.
فما هو العامل التربوي الأول الذي يصعد بهذه المشاعر الإنسانية إلى أعلى ذروة ممكنة ، ويقيها مزالق الانحدار إلى هاوية الشقاء والبلاء؟
لقد جرب سائل علماء الفلسفة والأخلاق ، بدءاً من أقدم فلاسفة اليونان من أمثال أبيقور وزينون إلى فلاسفة العصر الحديث من أمثال هوبز وكنت وستيروارت ميل، سبلاً كثيرة للتصعيد بهذه المشاعر، وتكوين شبكة منها تؤلف المجتمع الإنساني المتآلف السعيد. فخابت المساعي كلها، وتقطعت السبل بأصحابها. إذ تحولت هذه المشاعر، في الجملة، إلى دواعي قلق وأسباب تعقيد وحيرة، ثم التوت على أصحابها لتذيقهم كرباً خانقاً ، وتبرماً بكل شئ، وانفعالات تتشنج منها الأعصاب ، دون أن يجد أصحابها في

شئ من مظاهر المدنية والحضارة الحديثة وأسباب النعيم ما يصلح أن يكون ملاذاً من ذلك كله أو من بعضه.

وإن من حولنا لشواهد كثيرة على هذه الحقيقة التي انصرفت إليها أنظار جميع المثقفين والمهتمين بشؤون المجتمعات، في استغراب وهلع، ولست أجد موجباً للخوض فيها، في هذا الصدد.

أما الرسالات الإلهية التي جاءت تتوالى إلى الناس منذ فجر الحياة البشرية فوق هذه الأرض، فقد أرشدت إلى الطريق الذي لا بديل عنه والعلاج الذي لا ثاني له.

لقد أمرتهم أولاً بالتنبه إلى فطرة العبودية لله الكامنة في نفوسهم ، ثم بإيقاظها ووضعها من الحياة والسلوك موضع التنفيذ ، وذلك بتغذية أصولها بماء الطاعات والعبادات المختلفة التي شرعها الله لهم وأمرهم بها، فبذلك يتعرفون على الله عز وجل . وإذا عرفوه عرفوا أنفسهم وعثروا على هوياتهم : أنهم عبيد مملوكون لهذا الإله الواحد سبحانه وتعالى. وإذا عرفوا هوياتهم أدركوا علاقة ما بينهم وبين الكون والحياة ، ووقفوا منهما على قصة المبدأ والختام.

فعندئذ يتحرون من سجن الحيرة في تفسير كل منهما ، ويتخلصون من القلق في تقدير ما وراءهما، لاتتجه منهم المشاعر إلى الرغبة فيما لا طائل فيه ، ولا إلى الرهبة مما لا أهمية له . بل تغدو الذات الإلهية وحدها هي مكان كل رغبة ورهبة ، إذ إليه سبحانه وتعالى مرد كل نعمة ونقمة ، ورخاء وشدة . يطمئن أحدهم غاية الاطمئنان لكل ما يجرى حوله من متقلبات الدنيا وأحوالها رغم كفاحه فياه وسعيه

وراء آماله منها، لأنه موقن بأنه مع الدنيا التي هو فيها إنما يسير في فلك الإرادة الإلهية التي لامرد لها ويوجل غاية الوجل من النهاية المقبلة إليه بيقين لا يعتريه ريب ، لأنه موقن أنه سيقف بين يدي الله عز وجل ليحاسبه على كل ما قدم واجترع.

طمأنينة ووجل .... أثران قد يبدوان متناقضين لما تفعله العبادة في المشاعر ،ولكنهما في الحقيقة متكاملان ، كل منهما يشكل صمام أمام للآخر ، ومن مزيجهما المتكافئ تتكون إنسانية الإنسان كما يجب أن تكون في هذه الدنيا.

وعن هذين الأثرين يقول الله عز وجل مرة : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب).

ثم يقول مرة أخرى : " الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم ءاياته زادتهم إيماناً) (الأنفال : 2).

وفي تصوير هذا المعنى يقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يريويه الإمام أحمد:

" عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له".

وعندئذ تتحرر المشاعر الإنسانية أيضاً من أضغانها وأحقادها. وتتساقط عنها معاني الكبرياء والأنانية ، لتصبح بذلك صافيةمن سائر الكدورات والأهواء الجانحة . ذلك لأن يقين الإنسان بكونه عبداً لله عز وجل ، خلق ليمارس هذه العبودية عملاً وسلوكاً ، مع بني جنسه، يتناقض كل التناقض مع هذه الصفات التي من شأنها أن تتسلل إلى المشاعر الإنسانية الأصلية في غفلة عن التنبه إلى ذاتها،

فتتعلق بها وتذهب بصفائها. فما يكاد الإنسان يصحو إلى عبوديته لله عز وجل حتى ترتد هذه الصفات والكدورات عن نفسه شيئاً فشيئاً ، فإذا هي كسلسال من الماء الرائق العذب. وتلك هي التزكية التي يتحدث عنها بيان الفاطر الحكيم في كثير من المناسباتن كقوله سبحانه وتعالى :
(قد أفلح من تزكة (14) وذكر اسم ربه فصلى(15))
(الأعلى).
وقوله عز وجل خطاباً لموسى عليه الصلاة والسلام ، وقد أمره بدعوة فرعون للانصياع إلى الحق: (فقل هل لك إلى أن تزكى (18) وأهديك إلى ربك فتخشى(19)).
(النازعات)
وقوله عز وجل (قد أفلح من زكاها (9) وقد خاب من دساها(10)) (الشمس).
***
فذلك هو أثر العبادة في الحياة الروحية للإنسان ، أو بتعبير آخر : في تصفية المشاعر الإنسانية الأصلية من الطفيليات والكدورات التي قد تعلق بها، وفي تصعيدها إلى قمة صفائها الإنساني الأصيل.
وتلك هي حقيقة الإنسانية فيمن نسميه إنساناً، إذ لا جرم أن جوهره لا يتمثل في الكتلة المكونة من لحم ودم ومخ وأعصاب ، بل معاذ الله أن يكون إلى هذه الكتلة مرد المنجزات الإنسانية العجيبة خلال الأحقاب والدهور. وإنما يتمثل جوهره في مجموعة تلك المشاعر والوجدانات والمعاني التي تتلبس الجسم والتي قد تصفو أحياناً وترقى بصاحبها حتى لتكاد تصل به إلى درجة الملائكية ، وقد تتكدر

وتهبط به أحياناً أخرى حتى لتكاد تنزل به إلى أدنى من درجات البهائم والوحوش.

أثر العبادات في الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية :

فإذا ما تعهد الإنسان نفسه بالعبادة ، طبقاً لآدابها وشرائطها ، يوقظ بها عبوديته الكامنة لله عز وجل ، تهيأ له من نفسه ما يصلح أن يكون مغرساً للفضائل المختلفة، فتنمو فيها بذور السياسة الرشيدة، والتعاون الاجتماعي ، والعدل في الحكم ، وتزدهر فيها الخيرات على أتم وجه.

أي إن كلاً من السياسة الراشدة بين الحاكم والمحكوم، والمجتمع الذي ينظمه ميزان العدل ، وشريان التعاون ، والاقتصاد المزدهر الذي تمتد أفياؤه إلى الفرد والمجتمع، لا ينمو ويترعرع إلا في أرض مناسبة صالح ، وليس أرضها المناسبة إلا المعاني والمشاعر الإنسانية التي صقلتها أو زكتها العبادة الصحيحة لقيوم السموات والأرض.

ولكن فلنتساءل : كيف تؤثر العبادة هذا التأثير في نهضة الإنسان السياسية والاجتماعية والاقتصادية؟

وأجيب باختصار أرجو ألا يكون مخلاً فأقول :

إن الله عز وجل حينما تعلقت إرادته بإيجاد هذا الكون لكل ما فيه أنواعاً وأجناساً، اقتضت حكمته الباهرة أن يجعل الإنسان سيد هذا الكون وأن يجعل سائر مظاهره وموجوداته الأخرى مسخرة له قائمة بخدمته، وأن يكل إليه عمارته وأمر تنظيمه. فذلك هو المعني بالخلافة في قوله عز وجل :

(وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة)
(البقرة :30)
فكان أن جهز هذا المخلوق بمجموعة من الملكات والصفات، لابد منها لتتكامل لديه القدرة ، على إدارة شأن هذا الكون وتعميره واستخدامه فبث فيه جوهر العقل وما يتفرع عنه من العلم والإدراك والقدرة على تحليل الأشياء وتعليلها وسبر أغوارها والوصول إلى ما وراءها. وبث فيه معنى الأنانية وما يتفرع عنها من النزوع إلى الأثرة والتملك . وبث فيه أسباب القوة ومقومات التدبير، وما يتفرع عنهما من النزوع إلى السيطرة والعظمة والجاه، ثم بث فيه مجموعة من العواطف والأشواق والانفعالات ، تعد متممة لقيمة تلك الصفات وفوائدها، كالحب والكراهية والغضب وما إلى ذلك.
وكلنا يعلم أن الإنسان لم يستطع تسخير شئ مما في هذا الكون إلا يوم أن جهزه الله بهذه الملكات والصفات.
إلا أن لهذه الصفات شرة كبيرة ، ولها آفات عظيمة، وهي لذلك أسلحة ذات حدين ، إن استعمل أحدهما جاء بالتنظيم العظيم للكون والخير الوفير للإنسان، وإن استعمل الآخر أو استعملاً معاً، جاء ذلك بالشر الوبيل وبالفوضى الهائلة وأورث الإنسانية شقاء لا آخر له.
وقد نوه بيان الفاطر الحكيم بهذه الأسلحة ، وسماها أمانة، ولفت النظر إلى مدى أهميتها وضرورة حفظها ورعايتها، وذلك في قوله عز وجل :

(إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً) (الأحزاب 72).
ومصدر خطورة هذه الصفات أنها ليست في حقيقتها غلا صفات الربوبية ، فالعلم والقوة والسلطان والتملك الجبروت- كلها من مقومات الألوهية وصفات الله عز وجل، فمن شأن هذه الصفات إذا وجد منها نموذج، ولو يسيراً عند الإنسان، أن يسكره ويأخذ بلبه وينسبه حقيقته ويجعله يتمطى إلى مستوى الربوبية والألوهية ، رغم أنه لا يملك منها في الحقيقة إلا ظلالاً وآثاراً ليس لها من حقيقة الصفات الإلهية إلا المشاركة في الاسم وحده.
فمن نتائج الخطورة في هذه الصفات، أنها تحمل صاحبها على استعمال صف القوة في ظلم الآخرين، وعلى إشباع نزوعه إلى السيطرة والسلطان في بسط نفوذه وسلطانه والحيازة إلى أموال غيره يستلبها ويعثو بها . ثم من نتائج ذلك الصراع الدموي على السلطان والنفوذ والممتلكات وإن وقائع التاريخ لتدلنا على هذا الواقع دلالة واضحة.
وهكذا تنقلب هذه الصفات ، إذا تركت وشأنها ، إلى عامل اضطراب وشقاء في حياة الإنسان، وهي إنما ركبت فيه لتكون عامل سعادة ورقي ونظام.
فمن أجل ذلك كان لا بد من قوة أخرى تحيا في كيان الإنسان وتهيمن على سائر تلك الصفات بالقيادة والضبط والتوجيه. فماذا عسى أن تكون هذه القوة التي يمكنها أن تسيطر على شرة تلك الملكات والصفات، لتدفع بها في طريق الصلاح وحده؟

لن تتمثل هذه القوة إلا في حقيقة العبودية لله عز وجل إذ تستيقظ بين جوانح الإنسان، وتنمو نموها السليم عن طريق التغذية بالطاعات والعبادات التي فرضها الله عز وجل، يؤديها على الوجه المطلوب في ثبات ودون انقطاع.

إن هذه الحقيقة الهامة جداً في حياة الإنسان تكبح جماح نزواته وتوقظه من سكرة صفاته، وتجعله يشعر في أعماق كيانه بأنه ليس إلا عبداً لهذا الإله الواحد العظيم، بحيث تغدو تلك الصفات التي يتمتع بها أقل من أن تتجاوز به حد عبوديته. فما هي إلا أن تنقلب فتصبح وسيلة لسعادته من حيث إنه فرد، ولسعادة بني جنسه من حيث الجماعة، وتقوم بين الناس وشيجة الأخوة والمساواة أمام عبوديتهم لله عز وجل ، بعد أن كانت تقوم بينهم مسابقات ومنافسات غير شريفة في ميدان تتصادم فيه القوى وتتفارع فيه الأسنة ويقع المستضعف فيه ضحية لنزوات القوي وسكرة جنونه.

حينئذ تغدو نزعة التملك في الإنسان وسيلة طبيعية لإقامة حياة عادلة رخية ، يقوم فيها العمران وتخضر في أنحائها الجنان وتتكاثر في جنباتها الخيرات، وتصبح نزعة القوة والبطش سبيلاً إلى حراسة الحقوق وحفظ العدالة والدفاع عن المثل الفاضلة، وتصبح نزعة العلم والإدراك نوراً وهاجاً ينكشف به للإنسان دائماً حقيقة الذات الإلهية ويحذره من ان ينسى حدود عبوديته فيتجاوزها إلى أي كفر أو طغيان.

وبكلمة جامعة نقول : إن من شأن العبادة إذا أقبل إليها المسلمون يؤدونها على وجهها، أن تنزل بالمتألهين والمتكبرين من عليائهم ،وتحجزهم عن التطاول على

الآخرين، وأن ترتفع بالدهماء والمستضعفين عن مناخ الذل والصغار الذي فرض عليهم وتطلقهم فوق صعيد الحرية والكرامة، وتعيد إليهم مشاعر العز والإباء. وبذلك يلتقي هؤلاء ، وأولئك عند حدود عادلة متساوية ، لا تدع لهذا الجانب أو ذلك فرصة لاستغلال أو وسيلة لاستعباد.
وإن في وقائع التاريخ، ونماذج الحياة الإسلامية التي قامت على هذه الأرض خير دليل على هذه الحقيقة البدهية الواضحة.
وتلك هي الحكمة الكبرى من شرعة العبادات ، بل هي الحكمة الكبرى من شرعية الدين كله، ولا ريب أن العبادة لله عز وجل جوهر الدين ولبه ، ولنتدبر هذه الحكمة العظيمة من خلال قوله عز وجل : (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين(4) ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين (5) ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون (6) (القصص)
ولا ريب أن الطريق التي شرعها الله لتحقق هذه الإرادة ، هي الدينونة الصادقة لله عز وجل.
من أجل هذا يخطئ من يحسب أن العبادة ليست إلا إحياء لصلة ما بين العبد وربه، أي وكأنها شئ معزول عن الجماعة وعن التدخل في المجتمع بأي معالجة أو إصلاح.
أجل لا ينكر أنها تذكية للشعور بالرقابة الإلهية على حياة الإنسان ، ولكن مرد ذلك إلى خير المجتمع وإصلاح شأنه ، وفي سبيل ذلك نجد أن التشريع الإلهي قد جعل كثيراً إنك

إذا تأملت ،وجدت أنه نظم اجتماعاً بين المسلمين على مستوى أهل الحي من البلدة ، يتكرر في اليوم خمس مرات، وشرع لذلك صلاة الجماعة. ونظم اجتماعاً آخر لهم على مستوى أهل البلدة كلها يتكرر في الأسبوع مرة واحدة وشرع لذلك صلاة الجمعة. ونظم اجتماعاً آخر لهم على مستوى العالم الإسلامي كله ، ويتكرر في العام مرة واحدة وشرع لذلك الحج إلى بيته الحرام.

ومن ذلك ندرك مدى أهمية ما يرمي إليه كثير من العبادات المختلفة في الإسلام، من دعم روح الألفة والاجتماع وتغذية وشائج التعاون على شتى المستويات.

وتعال – إن شئت – نتلمس هذه الحقيقة في مشهد من مشاهد السيرة النبوية ، وما أكثر المشاهد التي تجسد هذه الحقيقة في سيرته صلى الله عليه وسلم وتظهر أثر العبادة في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمسلمين.

عندما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة المنورة واستقر به المقام فيها، أخذ في إنشاء الدولة الإسلامية ، وراح يثبت دعائمها لأول مرة في تاريخ الإسلام، ولقد كان من أهم هذه الدعائم، الأخوة الإسلامية التي عقد رباطها بين جميع المسلمين، والوثيقة أو الدستور الذي اكتتبه النبي صلى الله عليه وسلم ووضع فيه الخطوط العريضة الكبرى المتكفلة بتنظيم علاقات المسلمين بعضهم مع بعض ، وبتنظيم علاقات المسلمين مع غيرهم من أهل الكتاب.

غير أنه بادر – مع ذلك – قبل إقامة هذه الدعائم إلى شئ آخر ، أولاه الأهمية القصوى من الإسراع والعناية ، وعده

الحجر الأساسي الأول في بناء الدولة الإسلامية ، ألا وهو بناء المسجد.
لقد حصر همه في الأيام الأولى من وصوله إلى المدينة المنورة في تدبير بناء هذا المسجد ، وجمع لذلك جهود الصحابة كلهم، وأخذ يسعى معهم السعي الحثيث للإسراع في إنجازه، وكأن سائر الخطوات والأعمال الأخرى في طريق إشادة المجتمع الإسلامي متوقف عليه، ولقد أشار عليهم أن يظلل بجريد النخل استعجالاً لإتمامه ، فقالوا له : ألا نسقفه ؟ فقال : بل عريش كعريش موسى ، خشيبات وثمام، الشأن أعجل من ذلك.
فما الحكمة من ذلك ؟ ... بل ما هو موقع المسجد ووظيفته من الأركان الأساسية للدولة والمجتمع الإسلامي، حتى يجعل النبي صلى الله عليه وسلم معالجة هذه الأركان في الدرجة الثانية من الأهمية أي لاحقة به. وآتية من بعده؟
الحكمة أن شيئاً من الانسجام بين الحاكم والأمة ، وأن شيئاً من الوحدة التي يجب أن تشيع بين أفراد الأمة ، لا يمكن أن ينمو ويتحقق من خلال نصوص وشعارات، وإنما يتحقق وينمو نموه الطبيعي في النفوس إذا انصهرت هذه النفوس في بوتقة المسجد، فما لم يتلاق المسلمون يومياً وعلى مرات متعددة في بيوت الله عز وجل، وقد تساقطت مما بينهم فوارق الرتب والمال والجاه، واستيقظت بين جوانحهم مشاعر عبوديتهم لله عز وجل ، لا يمكن لروح التآلف والتآخي أن توحد ما بينهم.
والحكمة أيضاً أن الدستور أو القانون الذي يراد منه تحقيق النظام وإشاعة روح العدل في المجتمع ، لا يمكن أن يحقق

شيئاً من ذلك إن لم ينهض على أساس، ذلك لأن القانون يحرس الحق الموجود، ولكنه لا يستطيع أبداً أن يوجد الحق المعدوم، أي الحق الذي لم تؤمن به النفوس بعد، أو آمنت به ولكنها لم تركن إليه ولم تستأنس به بعد.

لابد إذا قبل الالتجاء إلى القانون والنظام ، من غرس الإيمان بجملة الحقوق والواجبات وموازين العدالة في النفوس. حتى إذا آمنت بها وأشربت حبها، جاء صرح القوانين والتشريعات حارساً لها وميسراً سبل تنفيذها .

فكيف يغرس الإيمان بذلك كله في النفوس ؟ ..

لا يتم ذلك ما لم يتلاق المسلمون كل يوم صفاً واحداً بين يدي الله عز وجل ،وقد وقفوا على صعيد مشترك من العبودية له والخضوع لحكمه. حتى إذا ما أنصبغت نفوسهم بهذه العبودية ، وخضعت خضوعها المطلق لما تستلزمه من العمل والسلوك، وتساقطت مما بينها حواجز الرتب ومشاعر الكبرياء وعوامل الحقد والأضغان ، تحقق للتشريع عندئذ نفوذه، وأصبح الحارس الأمين على سير العدالة بين الناس.

وربط الناس بالنظم والقوانين ، قبل أن تتهيأ لها نفوسهم وتنسجم معها بالتربية والصقل والتهذيب ، أشبه ما يكون بلصق الثمار بأغصان أشجار يابسة ، هل ينتظر بها إلا الذبول ثم السقوط والفساد ... ولعمر الحق لا تربي النفوس هذه التربية إلا بالعبادة المستمرة الصادقة ، ولا تسمو سموها المطلوب إلا عند ما تتوالى لقاءاتها في بيوت الله عز وجل.

***

أما أثر العبادة في الحياة الاقتصادية ، فلعل في الناس من يعجب من أن تكون للعبادة ، صلة ما بأمر الاقتصاد وشؤون التنمية.

ومرد هذا العجب الذي لا موجب له طبعاً ، إلى أن هؤلاء الناس لا يدركون أثر الأخلاق على الاقتصاد . والحقيقة أن رعاية شؤون التنمية والاقتصاد إنما تكون بوسائل من أهمها كثير من المبادئ الأخلاقية.

كثير من الناس لا يدرك أن البذخ الشديد مثلاً في جانب يستلزم نتيجة معاكسة لها في الظاهر، هي الشح والبخل الشديدان في جانب آخر ، مع أن بينهما في الحقيقة هذا اللزوم المستمر. ذلك لأن صاحب البذخ لا يستطيع أن ينال حظه من بذخه إلا بالاعتماد على لون شديد من الشح والبخل، فيه يستطيع أن يبذخ في الجوانب التي يجب أن يبذخ فيها.

وإذا التقت هاتان الصفتان وشاعتا في مجتمع من المجتمعات ، انقدح من تلاقيهما أسباب التخلف بل الهلاك الاقتصادي، وإن كانت فاعليتها تسري إلى النتيجة الحتمية ببطء وبشكل غير منظور في أكثر الأحيان.

لقد كان هلاك الرومان الاقتصادي الذي كان مقدمة لهلاكها الشامل، لأسباب من أهمها ما مني به الرومان من البذخ والترف اللذين استتبعا الشح والبخل في الوقت ذاته.

وكم أطلق فيلسوفها الحكيم " كانون" صيحة النذير مرة أثر أخرى ، ولكم كرر وأعاد فيهم قوله :

(.. لقد سمعتموني كثيراً ما أقول : إن الجمهورية مصابة بداءين متناقضين : " الشح والبذخ .. وهما الداءان اللذان قلبا الممالك العظيمة رأساً على عقب ".

فما الذي يضبط الناس ، بصدد معالجة شؤونهم الاقتصادية ، بالقيم الأخلاقية التي لها الدور الكبير في حراستها وصرف العوادي عنها ، كالاعتدال في الإنفاق والبعد عن كلا طرف البذخ والشح ، وكأعمال الرقابة ونحو ذلك؟

إن هذه القيم لن تدب فيها الحياة ولن يتكامل لها النمو إلا إذا غرست واستنبتت في نفوس صقلتها مشاعر العبودية لله عز وجل عن طريق ممارسة الطاعات والعبادات المتنوعة التي أمر الله تعالى عباده بها.

ويجدر أن نتنبه هنا إلى أن عمليات التنمية الأقتصادية بكاملها ، إنما تنطلق في حكم الإسلام ونظامه من أساس أخلاقي، بل من مسؤوليات إسلامية أنيطت بأعناق المسلمين كلهم، وليس محورها مجرد الاستجابة لحاجات الإنسان المادية ، كما يتصور الآخرون . بل إن ملكية المال في أصلها ليست في حكم الإسلام إلا وظيفة اجتماعية ائتمن الله عليها عباده في الأرض.

ولا ريب أن التنبيه إلى هذه الحقيقة ، يكشف عن مدى ارتباط الشؤون والنظم الاقتصادية بجذور العبادة في حياة المسلم ، كما يكشف عن الحقيقة التي لا مرية فيها، وهي أن أي ازدهار للاقتصادي لا يتم في الساحة الإسلامية إلا إذا ارتبط ارتباطاً وثيقاً بجذور العقيدة، ثم بجذع العبادة الصحيحة.

وبعد ، فإذا تبين ما للعبادة من أثر في حياة الإنسان الروحية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية من هذا البيان المختصر الذي أرجو ألا يكون اختصاره مخلاً ، فإن أهم ما يجب أن نتوصل إليه من وراء ذلك، أمر خطير لا يزال كثير من الباحثين والمصلحين ، حتى من رجال الفكر الإسلامي غافلين عن ملاحظته ، ألا وهو ما يلي :

أن البحث في تطبيق أي من جوانب الإسلام التشريعية أو الأخلاقية في المجتمع، قبل العمل على ترسيخ عقائده في النفوس ، ثم تزكية هذه النفوس بطهور العبادة الصافية على وجهها السليم، يعد من العبث الباطل كالسعي إلى إقامة الدور الثالث من بناء لم يظهر منه بعد أساسه ولا دوره الأول ولا الثاني. فإن كان لهذا الدور الثالث أن ينهض على الهواء ويستقر في الفضاء كان لتلك الفروع والتشريعات الإسلامية أن تجد سبيلها إلى الاستقرار والتطبيق.

عبث ما بعده عبث أن نحبس أنظارنا من الإسلام في نظمه الاجتماعية وأحكامه القانونية فقط ثم نلهب أنفسنا حماساً لتطبيق هذه الأنظمة والأحكام ، وكنس ما يعارضها من النظم والتشريعات الباطلة ، دون أن نلتفت ساعة من نهار إلى القلوب التي تعاني من فراغ العقيدة ، ثم إلى النفوس التي تعاني من كدورات الأهواء وعقد الحياة والضلال عن حقيقة الذات.

أجل إنه لعبث ما بعده عبث هذه المعالجة الفوقية التي لا تنهض على ساق ولا أساس.

ليست مشكلة العالم الإسلامي اليوم بصدد تطبيق الإسلام، أن أحكام الحدود غير مطبقة فيه أو أن المسلمين فيه يتعاملون بالربا، أو أن أنظمتهم مستوردة من الغرب أو الشرق.

وإنما مشكلته الكبرى أن أكثر المسلمين فيه ضائعون عن هوياتهم ، غافلون عن مصيرهم ، لم يرسخ في ضمائرهم بعد معنى كونهم عبيداً لله عز وجل ، وأنهم مجرد سلعة في بضاعة الرحمن، ,أن في أعناقهم بيعة كبرى لمالكهم عز وجل. فتسلل سلطان الأهواء إلى نفوسهم ،وران ظلام الشهوات على قلوبهم ، فمهما غرست في ساحات هذه النفوس أحكاماً وأنظمة إسلامية ، لابد أن يكون مصيرها الذبول والانمحاق.

وإنما تحل المشكلة ، بإيقاظ العقول إلى حقيقة هذا الكون وما وراءه وما بعده، وبإيقاد سرج الإيمان الحقيقي بالله عز وجل في طوايا النفوس المظلمة ، ثم تغذية هذه الإيمان بغذاء الذكر والعبادة ، إلى أن تستيقظ في الجوانح مشاعر الرغبة والرهبة ، ويتحل الكيان الإنساني مظهراً لقول الله عز وجل : (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) (الأنعام : 162).

فعندئذ يسارع المسلمون إلى أداء واجباتهم ، والنهوض بتكليفاتهم ، وأداء حق البيعة المثبتة في أعناقهم. فتطبق الحدود ويمتنع الربا وتزول الفواحش، ويستقيم النظام. ويصبح التشريع والقانون مجرد حصن للوقاية ، وسياج للحماية ، ويتحد المسلمون بعد التفرق والشقاق.

ذلك هو الإسلام في تكامله واتصال حلقاته، عقيدة ، فعبادة ، فنظام وتشريع ، لا تنمو العقيدة بدون غذاء من العبادة ، ولا تغني العبادة إن لم تتوج بنظام وتشريع الحياة ، ولا يستقر هذا التاج إلا فوق بنية من العقيدة الراسخة والعبادة المستمرة الصادقة لله عز وجل.

حلقات ثلاث ، متصلات مترابطات ، لا يتكون الإسلام إلا من مجموعها ، ولا يطبق إلا بمجموعها ، ولا ينهض المجتمع الصالح السعيد إلا على مجموعها.